العدول في سياق العطف في النص القرآني

م.م. حسين خضير ستار
جامعة ذي قار /كلية الآداب / قسم اللغة العربية

المقدمة

لقد شغفنا حب هذا الكتاب العزيز منذ شدونا في خطى البحث والدرس .. وتملكنا الطماح إلى نيل شرف البحث في مادة من مواد علومه ، وهي كثيرة ، ومن ثم كانت دراستنا للعدول في سياق العطف في النص القرآني ، إذ قد تكشف هذه الدراسة عن ألوان من الدلالات الفنية في بحوث السابقين ، لها خطرها ، وليس من همّ البحث في هذا الموجز التأصيل لموضوع العدول في القرآن الكريم ، إذ يعد هذا البحث نافلة القول ؛ لأن قضاياه موجودة في المصنفات اللغوية والبلاغية والتفسيرية ، ولا يسع المرء إلا أن يقف إجلالا أمام جهود جمهرة من العلماء من أهل التفسير وفرسان البيان الذين وقفوا نتاج عبقريتهم على خدمة لغة الوحي .

وقد اقتضت طبيعة المادة أن يكون البحث على مطلبين فضلا عن الخاتمة .

أما المطلب الأول فتناول البحث فيه : العدول من الاسم إلى الفعل أو العكس ...

وأما المطلب الثاني فأظهر البحث فيه العدول من الفعل الماضي إلى المستقبل أو العكس ...

وقد أجملت الخاتمة ما في البحث من أفكار .

مدخل تمهيدي

يتميز التعبير القرآني بدقة اختيار الألفاظ ، ومواضع تلك الألفاظ ، إذ بلغ أعلى درجات الكمال في الفصاحة والبلاغة ، فهو تعبير مقصود ، كل لفظ فيه وضع وضعا فنيا مقصودا ، وأنه لم تقدم فيه لفظة على أخرى ، ولم يؤت بلفظ دون آخر إلا لغرض يقتضيه السياق[١] .

ومن هنا جاءت فكرة دراسة (العدول في سياق العطف في النص القرآني) ، لكون القاعدة النحوية تقتضي عطف الاسم على الاسم ، والفعل على الفعل بشرط اتحادهما في الزمان ، ولا يجوز خلاف ذلك إلا بالتأويل[٢] .

أما التعبير القرآني فقد ورد فيه عطف الاسم على الفعل ، والفعل على الاسم ، والفعل الماضي على المستقبل ، والمستقبل على الماضي ، مما ألزم أغلب النحويين والمفسرين تأويل هذه النصوص مراعاة للقاعدة غير ملتفتين إلى دقة المعنى المقصود من ظاهر النص القرآني الكريم .

والنحويون في جواز عطف الفعل على الاسم أو العكس ، أو الفعل الماضي على المستقبل أو العكس ، يمثلون اتجاهات عدة :

أولا : جواز العطف بشرط تأويل أحدهما بالآخر ؛ ليصح العطف ، وعلى هذا أغلب النحويين[٣] .

ثانيا : منع ذلك مطلقا ، واستدل أصحاب هذا الرأي بأن العطف أخو التثنية فكما لا ينضم فيها فعل إلى اسم ، لذا لا يعطف أحدهما على الآخر[٤] .

ثالثا : جواز عطف الاسم على الفعل أو بالعكس بالواو فقط ، وهو ما نسب إلى أبي علي الفارسي[٥]

رابعا : حسن عند السهيلي عطف الاسم على الفعل ، وقبح عكسه ؛ لأنه في الصورة الأولى عامل لاعتماده على ما قبله فأشبه الفعل ، وفي الثانية لا يعمل فتمخض فيه معنى الفعل[٦] .

والمتمعن في النصوص القرآنية التي عدل فيها في سياق العطف يذهب إلى جواز عطف الاسم على الفعل أو العكس ، والفعل الماضي على المستقبل أو العكس دون تأويل ؛ لآن تأويل أحدهما بالآخر يبعدنا عن الفائدة والحكمة المقصودة من ظاهر النص القرآني الكريم من جهة ، وجواز العطف بالواو وغير الواو من جهة أخرى ، يدلك على ذلك العطف بـ(أم) في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ (الأعراف:١٩٣) ، والعطف بـ(ثم) في قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٦٤) ، وغيرها من النصوص الكريمة ، ويقسم هذا البحث إلى مطلبين :

المطلب الأول : العدول من الفعل إلى الاسم أو العكس

أشار عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز[٧] إلى فائدة الفرق بين الخطاب بالاسم والفعل ، فالفعل يدل على التجدد والحدوث ويبعد عن الثبات والاستقرار ، يدلك على ذلك قوله تعالى : (هل من خالق غير الله يرزقكم) (فاطر / ٣) فلو قيل : (رازقكم) لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئا فشيئا .

أما الاسم فيفيد الاستقرار والثبوت يدلك على ذلك قوله تعالى : ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾(الكهف: من الآية١٨) فلو قيل : (يبسط) لم يؤد الغرض ؛ لأنه لم يؤذن بمزاولة الكلب البسط وأنه يتجدد له شيئا بعد شيء ، و(باسط) أشعر بثبوت الصفة .

لذا لا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر ، ، والنصوص القرآنية التي سأتناولها تشير إلى هذا المعنى.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ (الأعراف:١٩٣)

حيث ورد في النص القرآني عطف الجملة الاسمية (أنتم صامتون) على الجملة الفعلية (أدعوتموهم) ، وفائدة هذا العدول في العطف بيان حال المشركين أنهم إذا وقعوا في معضلة تضرعوا إلى أصنامهم ولجأوا إليها بالدعاء لذا عُبّر عن ذلك بصيغة الفعل لتغير حالهم وتبدلها ، وإذا لم يمسهم ضرّ بقوا صامتين ساكتين على حالهم فجيء بلفظ الاسم للدلالة على ثبات حالهم[٨] .

ولو وردت الجملة الفعلية (أصمتم) بدل الاسمية لكان جائزا وأسلم من الناحية النحوية إلا أنه يفتقر إلى تلك الدلالة التي ألمح إليها مجيء الاسم بدل الفعل في النص القرآني الكريم .

ويرى بعض المفسرين أنه جيء بالجملة الاسمية لكونها رأس آية ، أي لإفادة المطابقة[٩] ؛ لأن قبل هذه الآية قوله تعالى : ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الأعراف:١٩١) ، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأعراف:١٩٢) ، وبعدها : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأعراف:١٩٤)

ومن تلك النصوص أيضا قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (الملك:١٩)

إذ ورد الفعل (يقبضن) معطوفا على الاسم (صافات) ، وهذا العطف دفع بعض النحويين والمفسرين إلى تأويل أحدهما بالآخر ليصح العطف بينهما[١٠] .

فلو تمعّنا في النص الكريم وتبيّنّا سبب مجيء الفعل بدل الاسم لجنبنا النص القرآني من التكلف والتأويل .

فالأصل في الطيران هو صف الأجنحة لكون الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها ، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجيء بما هو طارئ غير أصلي بلفظ الفعل على معنى أنهنّ صافات ويكون منهنّ القبض تارة كما يكون من السابح[١١] .

فالتغاير بين اللفظين انعكس على المعنى ليدل الاسم على صفة الثبات وهي (الصف) ، ويدل الفعل على الصفة الطارئة وهي (القبض) ، ولو قيل : (وقابضات) لكان أكثر انسجاما في التركيب إلا أنه يخلو من الالتفات في النص الكريم .

ومن هذا النوع أيضا قوله تعالى : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ (الإنسان:١٤)

فقد حصل عدول في النص القرآني الكريم من الاسم إلى الفعل ، إذ التقدير : (ومذللة قطوفها) إلا أن المقصود من هذا العدول أن استدامة الظل مطلوبة هنالك لذا تكون صفة دنوها مستمرة فعُبّر عنها بصيغة الاسم ، أما تذليل القطوف أي سُخّرت ثمارها وسهُل أخذها[١٢] ، فمتجدد على حسب الحاجة لذا عُبّر عنها بصيغة الفعل الدالة على ذلك[١٣] .

ومن عطف الفعل على الاسم قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام:٦١)

فقوله (يرسل) يحتمل أربعة أوجه[١٤] :

١. أن يكون مستأنفا .

٢. أن يكون التقدير : وهو يرسل ، وتكون الجملة حالا إمّا من الضمير

في (القاهر) أو من الضمير في الظرف .

٣. أن يكون معطوفا على قوله (يتوفاكم) وما بعده من الأفعال المضارعة .

٤. أن يكون معطوفا على (القاهر) ، وذلك جائز بتأويل اسم الفاعل بمعنى (يفعل) ، وهو نظير قولهم : الطائر فيغضب زيد الذباب .

وما يعنينا من هذه الآراء هو الرأي الرابع ؛ لكونه من باب عطف الفعل على الاسم ، فضلا عن ذلك أنّ من اختار أحد الآراء الثلاثة الأخرى فللتخلص من عطف الاسم على الفعل .

والغاية التي أريدت من هذا العدول في العطف أنّ الله تعالى وصف نفسه بـ (القاهر) وهذا القهر يتجلى بقدرة الله ، وله وجوه عدّة منها : أنّه قهّار للعدم بالتكوين والإيجاد ، وأنه قهّار للوجود بالإفناء ، فإنّه تعالى هو الذي ينقل الممكن من العدم إلى الوجود تارة ومن الوجود إلى العدم تارة أخرى ، وكذلك أنّه قهّار لكل ضدّ بضدّه : فيقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور ، والنهار بالليل والليل بالنهار ....الخ ، فلفظة (القاهر وردت عامة وهي صفة من صفات الله تعالى لذا عُبّر عنها بالاسم ، وأما قوله : (ويرسل عليكم حفظة) فالمراد أنّ من جهة قهره لعباده إرسال الحفظة أي الملائكة الموكلين بضبط أعمال ابن آدم ، فعُبّر عنه بصيغة الفعل[١٥] .

وبهذا تتضح الفائدة من العدول في الآية الكريمة أنّه لمّا أراد العموم جاء بلفظ الاسم (القاهر) ولمّا أراد التخصيص أتى بلفظ الفعل (ويرسل عليكم حفظة) .

ومن النصوص الأخرى أيضا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام:٩٥)

فالذي يثير التساؤل : كيف عطف قوله : (مخرج الميت من الحي) بلفظ اسم الفاعل على قوله : (يخرج الحي من الميت) بلفظ الفعل ؟

وحقيقة الأمر أن بعض المفسرين والنحويين وقعوا في خلاف في تخريج هذه الآية الكريمة ، وكان لهم قولان :

أحدهما : أنّ قوله : (ومخرج) معطوف على قوله : (فالق الحب والنوى) فيكون من باب عطف الاسم على الاسم ، أمّا جملة (ويخرج الحي من الميت) فجملة مبينة لقوله تعالى : (فالق الحب والنوى) ؛ لأنّ فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت[١٦] .

وتجنب أصحاب هذا الرأي ظاهر النص من عطف الفعل على الاسم .

والآخر : كان الأصل أن يؤتى بصيغة اسم الفاعل في قوله تعالى : (يخرج الحي من الميت) أسوة بأمثاله إلا أنه عدل عنه إلى لفظ الفعل ليدل على أن ذلك الفاعل يعتني بذاك الفعل في كل حين وأوان ، وأما لفظ الاسم فإنه لا يفيد التجدد والاعتناء به ساعة بساعة ، فإذا ثبت أنّ الاسم يفيد الثبوت والاستقرار والفعل يفيد التجدد والحدوث ، فمن الواضح أنّ الحي أشرف من الميت ولا شك أن يكون الاعتناء بإخراج الحي من الميت أظهر في القدرة من الاعتناء بإخراج الميت من الحي ، فلهذا وقع التعبير عن إخراج الحي من الميت بصيغة الفعل اهتماما به[١٧] ، وإرادة لتصور إخراج الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع بخلاف قوله : (مخرج الميت من الحي)[١٨]

ومن النصوص التي ورد فيها عطف الفعل على الاسم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (الحديد:١٨)

حيث عُطف الفعل (وأقرضوا) على الاسم (المصدقين) ،فذهب بعض النحويين إلى أن (أقرضوا) عطف على معنى الفعل في (المصدقين) ؛ لأنّ الألف واللام في (المصدقين) موصولة بمعنى (الذين) واسم الفاعل بمعنى الفعل ، فكأنه قيل : إنّ الذين اصّدّقوا وأقرضوا[١٩] .

وهذا الرأي لا يزيل الإشكال إذ ليس فيه بيان أنه لِمَ عُدل عن لفظ (المقرضين) إلى لفظ (أقرضوا) ؟

وذهب آخرون إلى أن قوله : (وأقرضوا الله قرضا حسنا) اعتراض بين اسم إنّ وخبرها[٢٠] ، وإنّما قيل ذلك لئلّا يعطف الماضي على اسم الفاعل .

واختار الرازي هذا القول مشيرا إلى أنّ الألف واللام في (المصدقين والمصدقات) للمعهود ، فكأنه ذكر جماعة معينين بهذا الوصف ثم قبل ذكر الخبر أخبر عنهم بأنهم أتوا بأحسن أنواع الصدقة وهو الإتيان بالقرض الحسن ثم ذكر الخبر بعد ذلك وهو قوله : (يضاعف)[٢١] .

وقد يشير هذا الرأي إلى العلة التي من أجلها عُدل من الاسم إلى الفعل ، وهو تأكيد لحكم المضاعفة[٢٢]

.واستحسن أبو حيان أن يكون الموصول محذوفا ، كأنه قيل : والذين أقرضوا[٢٣] مستدلا عليه بقول الشاعر:

فمن يهجو رسول الله منكم
ويمدحه وينصره سواء

وهذا الرأي مقبول على مذهب الكوفيين دون البصريين فإنهم لا يجوزون حذف الموصول[٢٤] .

واختار فريق آخر أن يكون قوله (المصدقات) منصوبا على التخصيص ، كأنه قيل : إنّ المصدقين – عاما على التغليب - وأخصّ المصدقات منهم ووجه التخصيص ما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : (يا معشر النساء تصدقن فإنّي أريتكنّ أكثر أهل النار)[٢٥] يحضهن على الصدقة بأنهن إذا فعلن ذلك كان له تعالى أقبل ، وجزاؤه عنه سبحانه أوفر وأفضل ، ولما لم يكن الإقراض غير ذلك التصدق قيل (وأقرضوا) أي بذلك التصدق تحقيقا لكينونته ، ولو قيل : (والمقرضين) لفاتت النكتة من هذا العدول في النص الكريم[٢٦] .

ولا يخفى أنّ نصب (المصدقات) على التخصيص خلاف الظاهر إلا أنّ نكتة العدول المشار إليها أمر حسن .

المطلب الثاني : العدول من الفعل الماضي إلى المستقبل أو العكس

عدّ الزركشي هذا النوع من التفنن في الكلام نوعا من الالتفات(٢٧) ويغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة فيعدل بها إلى لفظ الماضي تقريرا وتحقيقا لوقوعها كقوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) (النمل:٨٧) ، وقد يجعل المستقبل ماضيا مبالغة ، ومنه قوله تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) .

أمّا فائدة العدول إلى المستقبل فالمراد منه استمرار الفعل واستحضار الصورة ، ولا يتأتى ذلك إلا بالمستقبل(٢٨) ، والنصوص القرآنية الآتية تشير إلى هذا المعنى ، ومنها قوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) (فاطر:٩) إذ ورد في النص القرآني الكريم عطف الفعل المضارع على الماضي ، وهذا لا يجوز عند النحويين وبعض المفسرين إلا بتأويل أحدهما بالآخر .

وقد تنبه بعض المفسرين إلى فائدة العدول من الماضي إلى المستقبل ، ومن توجيهاتهم :

أولا : أن يراد بالمضارع حكاية الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، واستحضار تلك الصورة الرائعة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة ، وأجاز أصحاب هذا الرأي العدول إلى المستقبل في كل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهُمُّ المخاطب وغير ذلك ، واستدلوا بقول الشاعر(٢٩) :

بأني قد لقيت الغول تهوي
بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرّت
صريعا لليدين وللجران

فأراد الشاعر تصوير الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه يُبصّرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب .

فكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها من الدلائل على القدرة الباهرة لذا عُدل عنه إلى لفظ المستقبل(٣٠) .

ثانيا : أن يكون الإتيان بما يدل على الماضي ثم بما يدل على المستقبل إشارة إلى استمرار الأمر وأنه لا يختص بزمان دون زمان ، إذ لا يصح المضي والاستقبال في شيء واحد إلا إذا قصد الاستمرار(٣١)

ثالثا : بما أن الإثارة خاصية للرياح وأثر لا ينفك عنها في الغالب فلا يوجد إلا بعد إيجادها فيكون مستقبلا بالنسبة إلى الإرسال ، وعلى هذا يكون استعمال المضارع على ظاهره وحقيقته من غير تأويل ؛ لأن المعتبر زمان الحكم لا زمان التكلم(٣٢) .

رابعا : ذهب الرازي إلى أن اختلاف الفعلين لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله تعالى – وما يفعل سبحانه يكون بقوله : (كن) فلا يبقى في العدم زمانا أو جزء زمان – جيء بلفظ الماضي دون المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان ، ولأنه تعالى فرغ من كل شيء فهو سبحانه قدر الإرسال في الأوقات المعلومة وإلى المواضع المعينة ، ولكون الرياح تؤلف في زمان معين وأسند إليها فعل الإثارة قال سبحانه : (تثير) بلفظ المستقبل(٣٣) .

ولم يرتضِ عدد من المفسرين قول الرازي مستدلين على رفضهم بقوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً) (الروم: من الآية٤٨) ، وقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)(الأعراف: من الآية٥٧) حيث ورد الإرسال بلفظ المستقبل(٣٤) .

وعلى الرغم من تعدد التوجيهات في النص القرآني الكريم إلا أنها كشفت عن سبب العدول في العطف حملا على الظاهر ، وبعيدا عن إخضاع النص للقاعدة النحوية من تأويل أحد الفعلين بالآخر.

وقريبا من هذه الآية قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ

خَبِيرٌ) (الحج:٦٣) وإنما صُرف اللفظ من الماضي إلى المستقبل ولم يقل : (فأصبحت) للإشعار بتجدد الإنزال وبقاء أثر المطر زمانا بعد زمان ، واستحضارا لصورة الاخضرار ، وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل(٣٥) وضرب الزمخشري مثالا لذلك بقوله : ((كما تقول : أنعم عليّ فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكرا له ، ولو قلت : فرحت وغدوت ، لم يقع ذلك الموقع))(٣٦)

ورفع الفعل هنا وإن كان قبله لفظ الاستفهام لأمرين(٣٧) :

أحدهما : أنه استفهام بمعنى الخبر ، أي : قد رأيت ، فلا يكون له جواب .

والآخر : أن ما بعد الفاء ينتصب إذا كان المستفهم عنه سببا له ، ورؤيته إنزال الماء لا يوجب اخضرار الأرض وإنما يجب على الماء .

فضلا عن ذلك أنه لو نصب لأعطى عكس ما هو الغرض ؛ لأن معناه إثبات الاخضرار ، ومثال ذلك : ((أن تقول : لصاحبك : ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر ، فإن نصبته فأنت نافٍ لشكره شاكٍ لتفريطه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر))(٣٨)

ومن النصوص التي أشارت إلى استمرار الفعل بعطف المستقبل على الماضي قوله تعالى : (الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) (الأنفال:٥٦) فصيغة الاستقبال وردت للدلالة على تعدد النقض وتجدده ، وكونهم على نيته في كل حال ، أي ينقضون عهدهم الذي أخذ منهم في كل مرة من مرات المعاهدة(٣٩) .

علما أن هذه الآية نزلت في بني قريظة لما نقضوا عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأعانوا عليه المشركين بالسلاح يوم بدر ، ثم قالوا : أخطأنا ، فعاهدهم مرة أخرى فنقضوه أيضا يوم الخندق(٤٠) .

وهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية على ظاهرها لا يتأتى إلا بالعدول من الماضي إلى المستقبل .

ومن تلك النصوص التي عطف فيها المستقبل على الماضي قوله تعالى : (ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) (التوبة:٢٦) ، (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (التوبة:٢٧) فالتعبير بالاستقبال في قوله تعالى : (ثم يتوب)إشارة إلى انفتاح باب التوبة دائما وجريان العناية وفيضان العفو والمغفرة الإلهية بشكل مستمر، بخلاف ما يشير إليه قوله تعالى : (ثم أنزل الله سكينته) فإنزال السكينة أمر محدد غير جار(٤١).

واستحسن الطوسي عطف المستقبل على الماضي في النص القرآني الكريم لمشاكلته ، فإنّ الأول تذكير بنعم الله تعالى ، والثاني وعد بنعمه(٤٢) .

وفي القرآن الكريم نصوص ورد فيها العطف بالماضي على المستقبل وليس العكس ، ومنها قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) (الأعراف:١٧٠) فقد وقع خلاف بين القرّاء في النص الكريم ، فمنهم من قرأ : (يمسكون الكتاب) على المستقبل ، وآخرون على الماضي (تمسكوا)(٤٣) ليصح عطف قوله : (وأقاموا الصلاة) عليه .

وفي النص القرآني الكريم إشكالان :

أحدهما : إن التمسك بالكتاب يشمل كل عبادة ومنها الصلاة فلماذا قال تعالى : (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة) ؟

والجواب على ذلك أن هذا التغاير هو نوع من التفنن في الكلام ويسمى باب عطف الخاص على العام(٤٤) ، وفائدته التنبيه على فضل الخاص حتى كأنه ليس من جنس العام تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات(٤٥) ، وبذلك يكون تخصيص ذكر الصلاة من بين سائر العبادات – مع دخولها بالتمسك بالكتاب – إظهارا لمرتبتها وتشريفا لها لكونها عماد الدين(٤٦) .

والآخر : ما علة عطف الماضي (أقاموا) على المستقبل (يمسكون) ؟

والجواب على ذلك أن التمسك يعني الاعتصام(٤٧) ، والآية تعد التمسك بالكتاب إصلاحا والإصلاح يقابل الإفساد وهو الإفساد في الأرض أو إفساد المجتمع البشري ، وبهذا يتضح أن التمسك بالكتاب أمر مستمر في جميع الأزمنة لذا ورد (يمسكون) بلفظ المستقبل ، أما إقامة الصلاة فإنها مختصة بأوقاتها لذا عُبّر عن أقامتها بلفظ الماضي(٤٨) ، وهذه الفائدة لا يمكن الوصول إليها إلا بالتغاير بين الفعلين

وقريبا من هذا المعنى المعنى الذي أشارت إليه الآية الكريمة في التغاير بين الفعلين في قوله تعالى : (إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)(فاطر: من الآية١٨) ، فالعدول في العطف ورد للإشعار باختلاف المعنى ؛ لأن الخشية لازمة في كل وقت ، والصلاة لها أوقات مخصوصة(٤٩)

ومن موارد عطف الماضي على المستقبل في القرآن الكريم قوله تعالى : (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ

النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) (هود:٩٨) فالعدول عن (يوردهم) إلى (فأوردهم) للدلالة على أن الماضي قد وقع ودخل في الوجود فلا سبيل البتة إلى دفعه ، فإذا عُبّر عن المستقبل بلفظ الماضي دل على غاية المبالغة ، ولما في ذلك من الإرهاب والتخويف(٥٠)

وأشار الراغب إلى أن أصل الورود قصد الماء ثم استعمل في غيره ، يقال : وردت الماء أرد ورودا فأنا وارد ، والماء مورود ، وقد أوردت الإبل قال تعالى : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ)(القصص: من الآية٢٣) ، والورد الماء المرشح للورود(٥١) .

وعلى هذا ففي الكلام استعارة لطيفة ((بتشبيه الغاية التي يقصدها الإنسان في الحياة لمساعيه المبذولة بالماء الذي يقصده العطشان ، فعذب السعادة التي يقصدها الإنسان ورد يرده ، وسعادة الإنسان الأخيرة هي رضوان الله والجنة ، لكنهم لما غووا باتباع أمر فرعون وأخطأوا سبيل السعادة الحقيقية تبدلت غايتهم إلى النار فكانت النار هي الورد الذي يردونه))(٥٢)

الخاتمة

نلخص هنا جملة أمور أفدناها من البحث...

١. أثبت البحث أن ألفاظ النص القرآني وضعت وضعا فنيا مقصودا ، فالعدول في سياق العطف من الاسم إلى الفعل أو العكس ، والعدول من الماضي إلى المستقبل أو العكس ، لم يرد في النصوص إلا لدلالة يقتضيها السياق .
٢. أظهرت الدراسة دلالات النصوص القرآنية اعتمادا على الظاهر وابتعادا عن التأويل والتكلف النحوي الذي لجأ إليه أغلب النحويين وتابعهم بعض المفسرين .
٣. تجلى من خلال هذه الدراسة أن العدول في سياق العطف أسهم في إثراء دلالات النص القرآني .
٤. حاول أغلب النحويين – وتابعهم بعض المفسرين – تطويع النص القرآني ليتناسب والقواعد النحوية .
٥. انبرى بعض المفسرين للكشف عن الدلالات العميقة للنص القرآني من التقيّد بالقواعد النحوية ، إذ تفاعلوا مع تلك الدلالات بحيوية النص القرآني النابع من دون الغيب المهيمن على اللغة .

الهوامش

١. ينظر : التعبير القرآني : ٥١
٢. ينظر : شرح جمل الزجاجي : ١ / ٢٢٣
٣. ينظر : الإنصاف : ٢ / ٤٧٧ م (٦٦) ، المقرب : ٢٥١ ، ارتشاف الضرب : ٢ / ٦٦٥
٤. ينظر : همع الهوامع : ٣ / ١٩٢
٥. ينظر : شرح الرضي على الكافية : ١ /٣٢٨ ، الأشباه والنظائر : ٢ / ٦٣
٦. ينظر : همع الهوامع : ٣ / ١٩٢
٧. ينظر : دلائل الإعجاز : ١ / ١٤٠ – ١٤١
٨. ينظر : الكشاف : ٢ / ٢٢٨ ، التفسير الكبير : ١٥ / ٢٩٦ ، البحر المحيط : ٤ / ٥٦٠
٩. ينظر : فتح القدير : ٢ / ٢٧٧ ، روح المعاني : ٩ / ١٤٣
١٠. ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ٣ / ٤٧٤ ، المقرب ، ٢٥١
١١. ينظر : الكشاف : ٤ / ٤٣٧ ، التفسير الكبير : ٣٠ / ٧٢ ، البحر المحيط : ٨ / ٤٢٥
١٢. ينظر : تفسير أبي السعود : ٩ / ٧٣
١٣. ينظر : روح المعاني : ٢٩ / ١٥٩
١٤. ينظر : مجمع البيان : ٤ / ٧٤ ، التبيان في إعراب القرآن : ١ / ٢٤٥ ، البحر المحيط : ٤ / ١٩٢
١٥. ينظر : التفسير الكبير : ١٣ / ١٤ – ١٦
١٦. ينظر : جواهر القرآن : ١/ ٥٣٣ ، الكشاف : ٢ / ١١١ ، تفسير البيضاوي : ٢ / ٤٣٢ – ٤٣٣
١٧. ينظر : التفسير الكبير : ١٣ / ٩٨ ، روح المعاني : ٧ / ٢٢٧
١٨. ينظر : روح المعاني : ٧ / ٢٢٧
١٩. ينظر : التبيان في إعراب القرآن : ٢ /٢٥٦ ، تفسير القرطبي : ١٧ / ٢٥٢ ، تفسير النسفي : ٤ / ٢١٨ ، تفسير الميزان : ١٩ / ١٦٢
٢٠. ينظر : مجمع البيان : ٩ / ٣٩٣ ، فتح القدير : ٥ / ١٧٣
٢١. ينظر : التفسير الكبير : ٢٩ / ٢٣٢
٢٢. ينظر : روح المعاني : ٢٧ / ١٨٢
٢٣. ينظر : البحر المحيط : ٨ / ٣١٥
٢٤. ينظر : مغني اللبيب : ٢ / ٦٢٥
٢٥. صحيح البخاري : ١ / ٧٨
٢٦. ينظر : روح المعاني : ٢٧ / ١٨٢
٢٧. ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٣٧٢
٢٨. ينظر : المصدر نفسه : ٣ / ٣٧٢ – ٣٧٣
٢٩. ينظر : الكشاف : ٣ / ٦٢٤ ، البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٣٧٢
٣٠. ينظر : الكشاف : ٣ / ٦٢٤ ، تفسير القرطبي : ١٤ / ٣٢٧ ، تفسير النسفي : ٣ / ٣٣٧ ، تفسير الجلالين : ٥٧٢ ، فتح القدير : ٤ / ٣٤٠ ، الميزان : ١٧ / ٢١
٣١. ينظر : تفسير البيضاوي : ٤ / ٤١٢ ، تفسير أبي السعود : ٧ / ١٤٥
٣٢. ينظر : روح المعاني : ٢٢ / ١٧١
٣٣. ينظر : التفسير الكبير : ٢٦ / ٨
٣٤. ينظر : البحر المحيط : ٧ / ٣٩٩
٣٥. ينظر : الكشاف : ٣ / ٢٣٥ ، تفسير الثعالبي : ٣ / ٨٧ ، تفسير الصافي : ٢ / ٨١٤
٣٦. الكشاف : ٣ / ٢٣٥ ، وينظر : التفسير الكبير : ٢٣ / ٦٣ ، البحر المحيط : ٦ / ٤٦٨
٣٧. ينظر : التبيان في إعراب القرآن : ٢ / ١٤٦
٣٨. التفسير الكبير : ٢٣ / ٦٣ ، وينظر : البحر المحيط : ٦ / ٤٦٨
٣٩. ينظر : مجمع البيان : ٤ / ٥٥٢ ، تفسير أبي السعود : ٤ / ٣٠ ، الميزان : ٩ / ١١٢

٤٠. ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١٩٩ ، مجمع البيان : ٥ / ٣٣
٤١. ينظر : الميزان : ٩ / ٢٢٨
٤٢. ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ١٩٩ ، مجمع البيان : ٥ /٣٣
٤٣. ينظر : تفسير البغوي : ٢ / ٢١١ ، فتح القدير : ٢ / ٢٦١ ، روح المعاني : ٩ / ٩٨
٤٤. ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٤٦٤
٤٥. ينظر : المصدر نفسه : ٢ / ٤٦٤
٤٦. ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٥ / ٢٣ ، مجمع البيان : ٤ / ٣٨٨ ، تفسير أبي السعود : ٣ / ٢٨٨ ، الميزان : ٨ / ٢٩٩
٤٧. ينظر : لسان العرب : ١٠ / ٤٨٨ م (مسك)
٤٨. ينظر : تفسير أبي السعود : ٣ / ٢٨٨ ، ، فتح القدير : ٢ /٢٦١ ، روح المعاني : ٩ / ٩٨
٤٩. ينظر : مجمع البيان : ٨ / ٢٣٩
٥٠. ينظر : الكشاف : ٢ / ٤٢٨ ، تفسير جامع الجوامع : ٢ / ١٨٩ ، التفسير الصافي : ٢ / ٤٧١
٥١. ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٨٦٥
٥٢. ينظر : الميزان : ١ / ٣٨١

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- ارتشاف الضرب من لسان العرب ، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي ت ٧٤٥ هـ ، تحقيق د أحمد مصطفى النحاس ، مطبعة المدني ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) ، أبو السعود محمد بن محمد العمادي ت ٩٥١ هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان
- الأشباه والنظائر في النحو العربي ، جلال الدين السيوطي ت ٩١١ هـ ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٧٥م
- إعراب القرآن ، النحاس أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل ت ٣٣٨ هـ ، تحقيق زهير غازي زاهد ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧م
- الإنصاف في مسائل الخلاف ، أبو البركات الأنباري ٥٧٧ هـ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٥م
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ت ٦٨٥ هـ ، تحقيق عبد القاهر عرفات ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٦م
- البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ت ٧٤٥ هـ ، تحقيق د عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م
- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت ٧٩٤ هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ
- التبيان في إعراب القرآن ، أبو البقاء العكبري ٦١٦هـ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة
- التبيان في تفسير القرآن ، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠ هـ ، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي ، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ
- التعبير القرآني ، فاضل صالح السامرائي ، دار الكتب للطباعة والنشر ، العراق
- تفسير الجلالين ، (جلال الدين المحلي ، جلال الدين السيوطي) ،تحقيق مروان سوار ، دار المعرفة بيروت – لبنان
- تفسير الصافي ، فيلسوف الفقهاء محسن الفيض الكاشاني ت ١٠٩١ هـ ، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي ، مؤسسة الهادي ، قم المقدسة
- جامع الجوامع ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ت ٥٤٨ هـمؤسسة النشر الإسلامي ،قم المقدسة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ
- الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أجمد القرطبي ت ٦٧١ هـ ، تصحيح أحمد عبد العليم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) ،عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ت ٨٧٥ هـ ، تحقيق د عبد الفتاح أبو سنة والشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار إحياء التراث العربي ١٤١٨ هـ
- جواهر القرآن ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ت ٥٠٥ هـ ، تحقيق د محمد رشيد رضا القباني ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م
- دلائل الإعجاز ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ت ٤٧١ هـ ، تحقيق د محمد التنجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي ت ١٢٧٠ هـ ،دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨م
- شرح جمل الزجاجي ، ابن عصفور أبو الحسن علي بن مؤمن الإشبيلي ت ٦٦٩ هـ ، تحقيق د صاحب أبو جناح ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ،العراق ١٩٨٠م
- شرح الرضي على الكافية ، رضي الدين محمد بن الحسن الإستراباذي ت ٦٤١ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيوت – لبنان ١٩٨٥م
- صحيح البخاري ، محمد بن اسماعيل البخاري ت ٢٥٦ هـ ، دار الفكر ، بيروت
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير (تفسير الشوكاني) ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت ١٢٥٠ هـ ، دار الفكر ، بيروت
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري ت ٥٣٨ هـ ، شرحه وضبطه وراجعه يوسف الحمادي ، مكتبة مصر ، سعيد جود السحار وشركاه ، مصر
- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور ت ٧١١ هـ دار صادر ، بيروت ١٩٥٦م
- مجمع البيان في تفسير القرآن ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ت ٥٤٨ هـ تحقيق لجنة من العلماء ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيرو ت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي) أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ت ٧١٠ هـ ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر
- معالم التنزيل (تفسير البغوي) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ت ٥١٦ هـ ، تحقيق خالد العك ومروان سوار ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٧م
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاري ت ٧٦١ هـ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٤٠٥ هـ
- مفاتيح الغيب ، للإمام محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين ت ٦٠٤ هـ ، قدم له فضيلة الشيخ خليل

محيي الدين ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٢م

- مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ت ٤٢٥ هـ ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، مطبعة أميران ، قم المقدسة ، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ
- المقرب ، ابن عصفور ت ٦٦٩ هـ تحقيق أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري ، مطبعة العاني ، بغداد
- الميزان في تفسير القرآن ، السيد محمد حسين الطباطبائي ت ١٤٠٢ هـ ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم المقدسة
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، جلال الدين السيوطي ت ٩١١ هـ ، تحقيق أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م